الدور الأدبي للصحافة السُّودانية (١٨٩٨-١٩٣٠م)

أ.د. محمد الحسن فضل المولى(★)

-١-

يمكن القول بأنّ أول صحيفة حملت اسم السودان هي جريدة: "السُّودان" التي بدأت تُطبع بالقاهرة وتوّزع في السودان عام ١٨٩٨م ، وكان يرأس تحريرها محمود القباني، أحد السودانيين المولّدين الذين تنقلّوا بين مصر والسودان ، وقد سبق له التمرُّس بالكتابة الصحفيّة بجريدة: "الأهرام"، وأصدر عن مطبعتها بالإسكندرية عام ١٨٩٦م كتابه: "السودان المصري والإنكليز" مؤرخاً لحقبتي التركيّة والمهديّة مع الاحتفال بالجانب الشعبي من آداب وفنون(١).

وقد اهتمّ القباني في جريدة "السُّودان" بالدفاع عن السيّاسة الإنجليزيّة تجاه السُّودان، مهاجماً مصر والخلافة العثمانيّة بأسلوب صحفي قوامه الإثارة، الأمر الذي دفع به إلى التفنّن في صوغ أقاصيص وصفها بالواقعيّة عن مظالم المصريين في السُّودان.

(★) أستاذ الأدب والنقد، والعميد السابق لكليّة اللُّغة العربيَّة بالجامعة.

(١) انظر: تاريخ الثقافة العربيّة في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين، ط ٢ : ص ٣٩١ ومّما يلفت النظر أنه أحجم عن إثبات اسمه في كتابه إذ الوارد فيه أنه (مجموعة رسائل لأحد أدباء مصر) ولكنّ نسبته إليه ثابتة، والمعروف أنه أقام بعد الفتح بالسودان إلى وفاته ، وعمل محرراً بكثير من صحفه، واشتهر بكتاباته التاريخية ، وفي بعض ما كتبه إشارة إلى أن جدّته لأمه تقلاويّة الأصل : النيل (١٩٣٦/١١/٧) وراجع الشاطئ الصخري لحسين منصور ، ط . البيت الأخضر بمصر ، ١٩٣٩م : ص ١٠٧- ١٠٨.

ولئن صحَّ أنَّ الرجل "كان برغم تفكيره الاستعماري أول من وسَّع موضوعات النشر السُّوداني، وجعلها تتناول مشكلات الحياة ... في كتابات نجد فيها الترتيب والتبويب والاهتمام بالمعنى والعدول عن السجع"(١)، فإن ذلك لا يعني أنَّ جريدته كانت سياسيّة المنحى دعائيّة الأسلوب، ممّا يبعد بها عن الاهتمام المباشر بالأدب ، كما أنّ مستوى التعليم والوعي العام بالسُّودان كان في أدنى درجاته في الحقبة التي صدرت فيها ١٨٩٨– ١٩٠٣م، ممّا يؤكّد ضآلة الأثر الذي يمكن أن تحدثه في الأوساط السُّودانيّة.

ومثل هذا يُقال عن جريدة "السُّودان" شبه الرسمية التي أصدرها أصحاب المقطّم القاهريّة "فارس نمر وشركاه" عام ١٩٠٣م، وتولّى تحريرها بعض الشوام المتمصرين(٢)، إذ "لم يكن السُّودانيون لأسباب تعليميّة واقتصاديّة قرّاءً لها عند ظهورها إلّا في حدود لا تُذكر، ولم يظهر منهم كتّاب على أعمدتها، ولم يدر

(١) الصحافة الأدبية وتطوّر الكتابة النثريّة في السودان ، بحث لمختار عجوبة بمجلة الخرطوم (٤ . ديسمبر ١٩٦٩) : ص ١٠٩ ـــــ ١١٠ "بتصرّف يسير".

(٢) انظر: تاريخ وجغرافية السُّودان لنعوم شقير ، ط . بيروت : ص ١٣٢٧ والشاطئ الصخري (مصدر سابق) : ص ٩٧ ، وقد ذهب مختار عجوبة في بحثه سالف الذكر إلى أنّ جريدة السُّودان التي كان يحررها القباني انتقلت إلى الخرطوم عام ١٩٠٤م ، ويظهر أنه خلط بينها وبين الصحيفة التي نتحدث عنها ، وقد صدرت عام ١٩٠٣م بالتأكيد .

بينهم رأي مستنير ينعكس على صفحاتها"[1]، إذا استثنينا بعض ما كتبه حسين شريف، كمقاله المنشور بتاريخ ١٩١١/٩/٢١م والدّاعي لإنشاء نادٍ يضمّ شمل الطبقة المتعلّمة ، ممّا تحقّق لاحقاً بإنشاء نادي خريجي المدارس عام ١٩١٨م.

ويمكن الجزم بأنها لم تترك أثراً في الساحة الأدبيّة برغم موالاتها الصدور حتى عام ١٩٢٥م، لأنها انصرفت إلى الجوانب السياسيّة والاقتصاديّة وما إليها دون أدنى اهتمام بالأدب وما يتعلّق به.

-٢-

والواقع أنّ أول صحيفة أثّرت على نحو واضح في المجال الأدبي هي جريدة: "رائد السَّودان" الأدبيّة الاجتماعيّة الأسبوعيّة التي صدر أول أعدادها بالخرطوم في الرابع من يناير عام ١٩١٣م كملحق عربي لجريدة: "السُّودان هيرالد"، التي كانت تصدر باللُّغتين العربيّة واليونانيّة منذ عام ١٩١١م ، ويعود الفضل في الصبغة الأدبيّة التي اتسمت بها "الرائد" إلى رئيس تحريرها الأول، بل صاحب فكرة إصدارها، الأديب السوري عبد الرحيم مصطفى قُليلات[2]،

(١) الصحافة السُّودانية في نصف قرن لمحجوب محمد صالح، قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم ١٩٧١م: ص ٢٨٠ .

(٢) جعله محمد محمد علي في (الشعر السوداني في المعارك السياسيّة)، طبعة مكتبة الكليّات الأزهريّة، ١٩٦٩م: ص ٢٨٠) آخر من تولوا تحريرها ، كما توهّم الدكتور محمد مصطفى هدّارة في (تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان ، ط. دار الثقافة – بيروت ١٩٦٧م : ص ٢١ هـ ٣) أنّه سوداني الجنسيّة، والصحيح هو ما ذكرناه في الحالتين .

فقد كان شاعراً حفيّاً بالأدب، ذا صلة وثيقة بالأدباء السُّودانيين، محبوباً لديهم[1]، وقد ترك كُتيِّبه: "نغمات الربيع في مدح سيّد الجميع"، الذي جمع فيه المقاطع الشعريّة التي نظمها، وزيّن بها واجهات السرادقات المختلفة بساحة المولد النبوي عام ١٣٢٩هـ أثراً طيّباً في أوساطهم[2]، ومن هنا فقد كان طبيعياً ومتوّقعاً أن يتجه بالجريدة وجهة تثرى الحركة الأدبيّة في البلاد الناشئة، وتدفع بها إلى الأمام.

فإضافة إلى متابعة "الرائد" المتصلة للحركة الأدبيّة في البلاد العربيّة وإمداد القرّاء بأجود ما تنشره الصحف والمجلات فور ظهوره، كنشرها كثيراً من قصائد حافظ إبراهيم وأحمد شوقي ـ فقد فتحت صفحاتها وأنهرها للكُتّاب والشعراء المصريين والسوريين العاملين بالسُّودان من أمثال: توفيق وهبي، وفؤاد الخطيب، وجميل الرافعي، وخليل الخوري، وأعضاء روضة الشعر بسنّار، فاهتموا في إلقاء بذرة طيبة في الساحة الأدبيّة بقصائدهم ومقالاتهم، التي تنوّعت موضوعاتها، فشملت التراث العربي والإسلامي، وتاريخ الأدب العربي

---

(١) ورد في (الشعر والشعراء في السودان لأحمد أبي سعد، ط. دار المعارف بلبنان، ١٩٥٩م: ص ٧) أنّه كان مدرساً بكلية غردون، ممّا لا أساس له من الصحة، ويمكن الرجوع لترجمة قليلات في تاريخ الشعر العربي لأحمد قبّش، ١٩٧١م، د.م: ص ٧٠١، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحّالة، ط/٢، ٥/ ٢١٤.

(٢) استوعب حسن نجيلة هذه المقاطع في كتابه ملامح من المجتمع السُّوداني، ط. ٤: ص ١٠- ١٥، والواقع أنّ نغمات الربيع لم يكن ديواناً ضخماً كما ورد في الصحافة السُّودانية في نصف قرن (مصدر سابق): ص ٤٢، إذ لا يزيد في جملته عن تسع صفحات من القطع الصغير.

والخـواطر الذاتيّـة والقضـايا الاجتماعيّـة، وتراوحـت أسـاليبها بـين السـجع والترسُّل[1]، ولا شكّ أن العقليّة السُّودانيّة كانت تتفاعل تفاعلاً مباشـراً عـبر هذا النتاج مع العقليتين المصريّة والسوريّة، ممّا ساعد علـى إخصـابها وتفتُّحهـا إلى حد كبير.

وفي واقع الأمر فإنّ "الرائد" فتحت الباب أمام النتاج الأدبي السُّـوداني، وخاصة في المسابقات الشعريّة التي دأبت على طرحهـا بـين كـل آونـة وأخـرى للتشطير والتخميس، فكان الشعراء السُّودانيون من الجيل القديم الذي عاصر المهديّة كالشيوخ: محمد عمر البنا، وأبـي القاسـم أحمـد هاشـم، وبـابكر بـدري، والجيل الناشئ من خريجي كليّة غردون لحقبتها الأولى كأحمد محمـد صـالح، وعبـد الله عمر البنا، يشتركون فيهـا مـع إخـوانهم المصـريين والسـوريين، وقـد يفـوز بعضهم بـأكبر جوائزهـا[2]. وفي هـذا مـا فيـه مـن الحفـاوة والتشـجيع وصـقل المواهب.

ومن جهة أخرى فقد أسهم بعـض الكتـاب السُّـودانيين في مجـال النقـد الاجتماعي على صفحات هذه الجريدة، ولعـلّ أجـدرهم بالـذكر: عبـد الـرحمن

---

(١) انظر: أمثلة ونماذج منها في مبحث الصحافة الأدبيـة وتطـوّر الكتابـة النثريـة في السُّـودان (مصـدر سابق): ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) انظر: ملامح من المجتمع السُّوداني (مصدر سابق) : ص١١٢ وما بعدها .

أحمد، ومحمد عبد الرحيم وحسين شريف، الذي آلت إليه رئاسة تحريرها عام ١٩١٧م، فمرنت بذلك أقلامهم ونضجت ملكاتهم لتؤتى أُكلها بعد حين.

وهكذا أسهمت الصحيفة بفضل الوجهة التي وجهها إليها رئيس تحريرها الأول عبد الرحيم قليلات[1] في ميلاد نهضة أدبيّة هي الأولى من نوعها في تاريخنا الحديث، ومهّدت بذلك لنشوء حركة النقد الأدبي التي لم يمض وقت طويل حتى بدأت براعمها في التفتّح على صفحات أول جريدة سودانيّة ملكيةً وتحريراً.

-٣-

يعود الفضل في إنشاء هذه الصحيفة ، أعني "حضارة السُّودان" إلى الصحفي السُّوداني الأول حسين شريف[2]، فلقد أدّت سلسلة مقالاته التي نشرها، و"الرائد" تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعنوان: "شعب بلا جريدة قلب بلا

(١) تمّت تنحية قليلات عن رئاسة التحرير، بل اعتقاله ثم نفيه إلى مصر إثر مقالة وطنيّة انتقد فيها سياسة الإنجليز في السُّودان عام ١٩١٥م (وليس ١٩١٧م كما ورد في الملامح : ص ٢٣) وخلفه في المنصب على التوالي : جميل الرافعي فتوفيق وهبي ثم حامد سعفان وأخيراً حسين شريف ، انظر: الشاطئ الصخري (مصدر سابق): ص ٩٩، وقد توقفت الجريدة عن الصدور عام ١٩١٨م.

(٢) كان قد تخرّج في كليّة غردون عام ١٩١٤م وعمل مدرساً للغة العربية حتى سنة ١٩١٥م ثم نُقل للعمل بسلك الوظائف الإدارية في مديرتي منقلا ودنقلا إلى أن ترك الخدمة الحكومية وتولّى تحرير الرائد في التاريخ المذكور: حضارة السُّودان (١٩٢٨/٦/٦). وراجع: الشاطئ الصخري (مصدر سابق): ص ٩٩، و١٦٩. Richard Hill , biographical Dictionary , P.

لسان"، بجانب سعيه الشخصي الجاد إلى تكوين شركة سودانيّة ضمّت السيد/ عبد الرحمن المهدي وبعض الأثرياء والوجهاء المرتبطين بطائفة الأنصار، وعن هذه الشركة، وبرئاسة حسين شريف نفسه صدر أول عدد من الحضارة في ٢٨ فبراير ١٩١٩م، وتوالى صدورها أسبوعيّة لمدة عشرة أشهر، ثمّ توقفت عن الصدور[١].

وقد ذكر بعض المؤلفين أنّ "الحضارة" كانت في حقيقتها الأولى هذه (أدبية اجتماعية) [٢] ممّا يشي بأنّها سارت على نفس النهج الذي اختطته "الرائد" من قبل، ومن هنا في أغلب الظن استنتج باحث آخر أنّ أهميتها تعود إلى أنها "ساهمت في نشر الأدب شعراً ونثراً"[٣]، وواقع الأمر أنها ظلّت (أخباريّة أدبيّة سياسيّة) حسبما عبَرْت عن نفسها في حقبتيها الأولى والثانية على السواء، وبتتبعنا لما كانت تنشره في المجال الأدبي خلال أولى هاتين الحقبتين يتأكد لنا أنّ إسهامها في هذا المعترك كان من الضآلة بحيث لا يصحّ أن يعتبر مقياساً لقيمتها، أو مصدراً لأهميتها مقارناً بجوانب اهتمامها الأخرى.

ذلك لأنها على عكس الرائد ركزت إلى جانب عنايتها بالأنباء المحليّة والعالميّة، على الجوانب الاجتماعيّة ثم السياسيّة ـ في أخريات عهدها ـ فاهتمت

(١) انظر: الصحافة السُّودانيّة في نصف قرن (مصدر سابق) : ص ٤٨ و ٥٣ وما بعدها .

(٢) حسن نجيلة في ملامح من المجتمع السوداني (مصدر سابق) : ص ٢٤ .

(٣) محمد محمد علي في الشعر السوداني ، في المعارك السياسية (مصدر سابق) : ص ٢٨٣ .

بقضايا التعليم، والمرأة، ومحاربة العادات الضّارة، وقيام صندوق أهلي لإنشاء المدارس والأعمال الخيرية، ثمّ سفر وفد السُّودان إلى بريطانيا للتهنئة بانتصارها في الحرب.

أما الشعر فلم تتجاوز عنايتها به نشر قصائد محدودة العدد في إطار الأغراض التقليدية من مدح ورثاء ومناسبات عارضة، ولهذا صحّ أن يقال إنّ حظ الشعر فيها "قليل بل نادر"[1]، خاصةً إذا نظرنا إليه في إطار المدى الزمني الذي والت فيه الصدور (عشرة أشهر)، وقارنّاه بما كانت تقدّمه "الرائد" لقرائها في هذا المجال.

وبالنسبة للنثر الأدبي فلن نجد فيها سوى مقالات يسيرة على فترات متقطّعة، ومعظمها لرئيس تحريرها حسين شريف، وقد يكون أكبر مما سنها في هذا الجانب نشرها لفصول من مبحث الشيخ/ عبد الله عبد الرحمن عن العربيّة في السُّودان، وقد صدر في كتاب فيما بعد.

ولعلّنا لا نبعد عن شاكلة الصواب إن أرجعنا هذا الموقف الذي وقفته الصحيفة إزاء الأدب، إلى المبدأ الذي اعتنقه محررها فيما يتعلق بمهمة الصحف

(١) سوق الذكريات لسليمان كشّة، شركة الطبع والنشر بالخرطوم، ١٩٦٣م: ص ٢٩ حيث يحصر كل ما نشرته من شعر في خمس قصائد ذكر موضوعاتها وأسماء شعرائها، وقد وقفنا على قصائد يسيرة فاته أن يشير إليها ليكتمل الحصر والاستقصاء وهي: رثائيّة لعبد الله حسن كردي (١٩١٩/٧/٢٦) الاعتراف بالفضل لنفس الشاعر (١٩١٩/١١/٨م) وتحية العام الهجري لأحمد البشير (١٩١٩/١٠/٤م) ورابعة لمحمد بك فاضل ألقاها في حفل أقيم بعطبرة احتفاءً بشفائه (١٩١٩/١١/٨م).

السيّارة، إذ يراها خبريّة سياسيّة في المقام الأول على ما سيأتي ، ثـمّ إلى مفهومـه الطموح فيما يتعلّق بالأدب نفسـه؛ فممّـا جـاء في افتتاحيتـه المعنوَنـة "الأدب ـ نصيحة فيه"، والتي أراد بها ـ كما يقول ـ تبيين "المنهج الذي نريـد أن ينهجـه أدباؤنا في رسائلهم وقصائدهم، والسبيل السـويّ الـذي يجـب أن يسـير عليـه الأدب في كل بلد وكل شعب": "ليس الأدب كما يظن بعـض النـاس قصـائد تُتلى للفكاهة ، أو أساطير تُنقل في المسامرات ، أو منظـوم مـن القـريض يمتـاز بحسـن الاسـتعارة ودقّـة التشـبيه، مـع مراعـاة المحسّـنات اللّفظيـة مـن التوريـة والجناسات ونحوها من فنون البديع ، فإنّ جميع هذا بمجرده لا يتصـل بمعنـىً مـن معاني الأدب، وإنما الأدب في كل أمة هو الفن الذي يُقصد به تهـذيب عاداتهـا، وتلطيف إحساساتها وتنبيهها إلى خيرهـا لتجتلبـه ، وإلى مـا يخشـى مـن الشـر فتجتنبه، فالأدباء في الحقيقة هم ساسة أخلاق الأمم، بل هم أجنحتها تطير بهـم إلى ذروة فلاحها[1].

فهذا المفهوم الذي يُعَدُّ جديداً ومتقدّماً علـى مـا كـان سـائداً في الأوسـاط الأدبيّة السُّـودانية آنذاك، يدلّنا على أن الرجل لم يكن راضياً عن النتاج الأدبـي في تلك الحقبة ، فلا عجب أن عزف عن نشره إلاَّ في النادر القليل.

(١) الحضارة :٤سبتمبر ١٩١٩ وقد نسب نصيحته المطوّلة إلى هنري فاضل (؟) كتبها فيما يحدّد قبل ٣٥ سنة، وهو ممّا يصعب التحقّق من صحته .

-٤-

هذا، وبعد توّقف دام لسبعة أشهر نُفخت الروح في "حضارة السُّودان" مرةً أخرى، فعاودت الصدور أسبوعياً بحسبانها جريدة سياسيّة[1]، ناطقة بلسان التيار الداعي لانفراد الإنجليز بحكم السُّودان. ذلك أنّ شركة جديدة كوّنها السيّدان: علي الميرغني، وعبد الرحمن المهدي، والشريف يوسف الهندي، تولّت مهمة إصدارها هذه المرة، ورأت إبقاء اسمها القديم "تخليداً لذكرى أول صحيفة وطنيّة ظهرت في سماء السُّودان"، وأسندت رئاسة تحريرها لحسين شريف نفسه "لما عُهد فيه من المقدرة والولاء"[2].

وقد قُدّر للجريدة أن تؤدي لشطر كبير من عهدها الثاني هذا ـ وقد استمر إلى عام ١٩٣٨م حيث توقّفت عن الصدور ـ دوراً خطيراً في الحياة السُّودانيّة العامة ، فكان للمقالات التي كتبها محررها عن المسألة السُّودانيّة

(١) حرّرت هذا الاتجاه في البيان الذي نشرته في عددها الأول بتاريخ ١٤/٧/١٩١٩ (بيان من حضارة السودان في عهدها الجديد) ، وقد تمكّنت بعد مضي أكثر من سنتين من الصدور لمرتين في الأسبوع بدلاً من مرة واحدة .

(٢) المصدر السابق ، وقد روى صاحب الشاطئ الصخري : ص ١٠٢ – ١٠٣ على لسان الصحفي المؤرخ محمد عبد الرحيم قصة الصراع حول هذا المنصب وكيف أنه تولّاه للثلاثة أشهر الأولى ثم نُفي إلى الأصقاع الجنوبية ليخلفه فيه حسين شريف بعد تدخُّل من الحكومة، ولكنّ ما جاء في بيان الحضارة الأولى ينفي هذه الواقعة ، وإن كان الرجل قد شارك فعلاً في تحريرها وكتابة افتتاحيّاتها لهذه الفترة ، ثم لفترات متقطّعة فيما بعد .

ونادى فيها صراحةً بانفراد الإنجليز بحكم السُّودان ـ ردود فعلها الواسعة، خاصةً في صفوف الشبيبة المؤمنة بالتعاون مع مصر ضدّ الإنجليز، فاتجهت إلى تكوين الجمعيّات السريّة، وإصدار المنشورات التي تهاجم السياسة والأفكار التي تروّج لها الجريدة، ثم تصاعد النضال حتى كانت وثبة ١٩٢٤م الثوريّة، ولقد وقفت الحضارة من الوثبة موقف المتبرئ المستنكر، بل المدين لقادتها والداعي لاستئصال شأفتهم وإخماد أنفاسهم[١]، وليس هذا بغريب فقد آلت ملكيتها الفعليّة إلى الحكومة عام ١٩٢٤م، وإن ظلّت تصدر باسم الشركة آنفة الذكر على سبيل التمويه[٢].

ولا يهمنا أن نفصّل القول في الدور الذي أدّته الصحيفة في الجانب السياسي بأكثر ممّا سلف، وإنما سقنا هذا القدر لأهميته في توضيح مدى إسهامها في مجال الأدب والنقد ونوعيّته في هذه المرحلة، ممّا سنقف عليه بعد قليل.

لقد مضت الحضارة قدماً كعهدها السالف فيما يخصّ الجوانب الاجتماعيّة، فنشرت الخواطر، والمناقشات، والمقالات الناقدة، وكانت قضية التعليم بوجه عام،

---

(١) راجع: الإدارة البريطانية والحركة الوطنيّة للدكتور جعفر محمد علي بخيت (الترجمة العربية): ص ٩٤ .

(٢) انظر: تفصيلاً في الصحافة السودانية في نصف قرن (مصدر سابق) : ص ٩٩ وما بعدها ، وقد ذكر Richard Hill (مصدر سابق) في ترجمته لحسين شريف : P,١٦٩ أنها آلت للحكومة عام ١٩٢٠م، ولعلّ التاريخ الذي أثبتناه هو الصحيح.

وتعليم المرأة بوجه خاص، من القضايا التي كثر فيها الأخذ والرد على صفحاتها، وشارك فيها الكُتَّاب والشعراء على السواء.

فإذا انتقلنا إلى الأدب والنقد؛ فسنجد أنها ساهمت بقدر كبير حقاً في خدمة الحركة الأدبيّة والنقديّة في هذه المرحلة، ولكنّ إسهامها كان في إطار حدود معيّنة حتّمتها أو كيّفتها العوامل التالية:

[١] موقفها المنحاز صراحة إلى الإنجليز وسياستهم، ممّا جعلها تقتصر أحياناً على نشر المقالات والقصائد التي تُسبّح بحمد هذه السياسة دون غيرها، وبذلك فقد حرمت التيار الأدبي الذي يناهض هذه السياسة من نشر إنتاجه، وإن يكن اليسير من هذا الإنتاج كان يجد طريقه إلى الصحف المصريّة فتعني به وتنشره(١).

[٢] ميلها الواضح إلى المحافظة فكريّاً وأدبيّاً، ممّا أدّى بها إلى أن تقف أحياناً في وجه الأدباء والنُّقَّاد التجديديين ، على أنها ـ والحقّ يقال ـ أفسحت المجال في أحيان كثيرة أمام الآثار القلميّة لدعاة التجديد من قبيل حمزة الملك طنبل، ومحمد عثمان عيسى (ابن رجاء) على سبيل المثال.

[٣] ضيق نطاق صفحاتها بحيث نراها تطالب الكُتَّاب من آونة لأخرى بالإيجاز والاختصار، مع ما قد يكون في ذلك من ضير على الأفكار والمواضيع "وحتى ما كان يُلقى في نادي خريجي المدارس من محاضرات ومساجلات كانت

(١) انظر: مثلاً منه في كتاب (في الشعر السوداني) للدكتور عبد المجيد عابدين ، الدار السودانية للكتب، د. ت : ص ٤٩ .

تضطر إلى إهماله ، وكل ما يجده القُرَّاء على صفحاتها خلاصة تشير إلى ما حدث في كلمة دالّة، أو خبراً أو قصيدة رائعة من شاعر معروف"[(١)] مع استثناءات يسيرة، وقد كان هذا الوضع من أسباب ضياع بعض التراث النقدي الرائد، وأجدره بالذكر محاضرة الأمين علي مدني في نقد شعر عبد الله عمر البنا، وقد ألقاها بنادي خريجي المدارس في منتصف أبريل ١٩٢٥م.

[٤] غلبة الروح الصحفيّة على رئيس تحريرها حسين شريف، الذي وُصف بحقّ بأنّه " كان مثال الصحفي اللّبق في جمال أسلوبه، وبعد مراميه، وفي القيام بواجبه كرئيس تحرير من حيث تبويب الجريدة وكتابة الافتتاحيّات التي لا تقلّ في منطقها وجزالتها عن أيّة افتتاحيّة في أرقى الصحف العربيّة"[(٢)]، ذلك لأنّه وإنْ شارك في توجيه الحركة الأدبيّة والنقديّة بريادته لدعوة القوميّة السُّودانيّة، وبما كان يكتبه من تعليقات ومقالات موجهّة بين آن وآن؛ فقد كان يولي اهتمامه الأكبر للأخبار والأحداث العامة وما يتصل بها من تعليق أو تحليل، ويراها المهمة الأولى للصحيفة السّيارة، ويفهم أن الشعر الخالص والكتابات الأدبيّة المطوّلة مكانها المجلات المتخصّصة ـ مع أنها لم تكن موجودة في السُّودان آنذاك ـ ولذلك قلّ اهتمامه بهذا الجانب، ولم يخصص له إلّا حيّزاً صغيراً من صفحات الحضارة.

(١) سوق الذكريات (مصدر سابق) : ص ١٦١ .

(٢) الشاطئ الصخري (مصدر سابق) : ص ٩٩ .

على أنّ هذا الحيّز كان يتسّع في حال غيبته خارج البلاد للاستشفاء، أو أثناء فترة احتجازه للعلاج بمستشفى الخرطوم من داء الصدر الذي عجّل بوفاته في أواسط عام ١٩٢٨م، نقول إنّ الحيّز الأدبي كان يتسع في هذه الفترات التي قد تطول، إذ يقوم بمهمة رئاسة التحرير نائبه الشيخ عبد الرحمن أحمد المدرس بالمدارس الابتدائية[1]، وكان من الحادبين على الأدب، المؤمنين بضرورة العناية به، فتُنشر القصائد والمقالات الأدبيّة ، وينفتح باب المساجلات النقديّة.

وقد كان من تشجيعه للشعر والشعراء أن تبنّي مسابقة لتشطير أبيات أبي فراس الحمداني[2]:

أحبّ الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كأنّ به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً يداً ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلةٌ ... فكن أنت محتالاً لزلّته عذرا

وقد وجدت هذه المسابقة إقبالاً كبيراً من الشعراء شباباً وشيوخاً، ممّا تظهره مشاركاتهم الشعريّة التي أخذت طريقها للنشر تباعاً على صفات الحضارة، إذ لم

(١) وصفه سعد ميخائيل في (السودان بين عهدين) ط . الخيرية بمصر ١٩٤٠ : ص ٢٨١ بأنه "شاعر كبير له قصائد يتناشدها أهل السودان" ، وفي هذا شئ كثير من المبالغة ، وعلى العموم فإنّ قصيدته زفرة يائس (النهضة السودانية ، ع ١٠ ص ٢٢) تصلح نموذجاً لشاعريته ، ولم نقف له على غيرها في هذا المجال . الحضارة : ١١ مايو ١٩٢٧م .

(٢) الحضارة: ١١ مايو ١٩٢٧م.

يقتصر النشر على تشطيرات الشعراء الذين فازوا بـالجوائز المرصـودة[1]، فلمّـا عاد حسين شريف من رحلة الاستشفاء التي قضاها بالخارج، أعلن اعتراضه على النهج الأدبي الذي اتجهـت إليـه الجريـدة ، وأوضـح مفهومـه الصـحفي الـذي سلفت الإشارة إليه، إذ كتب يقول: "حصل في غيابي أخذ ورد خاص بخطة هـذه الجريدة نحو مقالات الكُتَّاب وقصائد الشعراء وإفساح مجال النشر لها، وفتح باب مجال المجاريات الشعريّة، وجعل الأخبار والحوادث الداخليّـة والتعليـق علـى مـا يستحق التعليق منها أموراً ثانويّة تأتي بعد الأدبيّات إن سمح لها النطاق، ولا بُـدَّ من القول هنا: إنّ الشـعر لـيس ميدانـه الجرائـد الأخباريـة، وأنـه لا يجـد مـن الصحافة مثل ما يجد النثر، ذلك لأنَّه خاص أكثر منه عام، ومقيّد أكثر منه مطلق، وقلّ من يجيد فيه ويجعله رحب الـذراع، سـلس القيـاد، متمشـيّاً مـع الحـوادث والأحوال، منطبقاً على المباحث العامة التي تتناولها الصحف على الدوام، ولهـذا تراه أقلّ حظاً من أخيه النثر، أمّا اطّراح الأبيات لتشـطيرها والقصـائد لمجاراتهـا فهذا ميدانه الجرائد والمجلات الأدبيّة المختصّة"[2].

---

(١) وهم على الترتيب : إبراهيم أنيس وجائزته: كتاب "زهر الآداب"، ومحمد أحمـد محجـوب وجائزتـه: كتابا : "الاقتضاب في شرح أدب الكُتَّاب" و"الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناشـر"، والأمـين الأزهري وجائزته: اشتراك نصف سنة في الجريدة : حضارة السودان (١٩٢٧/٦/٢٩م) .

(٢) الحضارة : ١٩٢٧/٧/٢٠م (كلمة لا بد منها لأدبائنا وشعرائنا) ، ولا نستبعد أن يكون رفضـه للتشـطير والمجاراة نابعاً عن فهم صحيح لما هيّة الإبداع الشعري آخذاً بنظرته العامة للأدب ، وقد وقفنا عليها فيما تقدّم .

ولا شكّ أنّ هذا المفهوم الذي آمن به الرجل، وطبّقه طوال توليّه رئاسة التحرير، كان يقلّل إلى حد كبير من نطاق القدر الذي تسهم به الصحيفة في مجال الأدب والنقد.

ومع كلّ هذا، وبرغم ما أشرنا إليه من سلبيّات، فقد ارتبط النشاط الأدبي بوجه عام، والحركة النقدية السودانيّة في طور نشأتها بوجه خاص، أشدّ الارتباط بجريدة: "حضارة السُّودان"، فعلى صفحاتها ظهرت بواكير هذه الحركة وليدةً تحبو، ثم دارت المعارك والمساجلات التي دفعت بها قدماً نحو النضج والتبلور، وممّا نشر فيها صدرت بواكير الآثار التي خطّتها أقلام النقاد الرواد، وفي طليعتها: "أعراس ومآتم"[1] للأمين علي مدني ١٩٢٧م، و"الأدب السُّوداني وما يجب أن يكون عليه" لحمزة الملك طمبل ١٩٢٨م، فمن المعلوم أنَّ معظم المقالات التي احتوياها كانت قد وجدت طريقها للنشر للمرة الأولى بـ "حضارة السُّودان" قبل نشرها مجموعة على صفحاتهما فيما بعد.

(١) اعتقد يوسف أسعد داغر في (الأصول العربيّة للدراسات السودانية، ط. النحوي – بيروت ١٩٦٨م) أنّ هذا الكتاب يتناول الأعراس والمآتم بمعناها الحقيقي، ولذلك فقد صنّفه في قسم الفنون والفولكلور (ص ٢٠١ رقم ١٦٠٧) والصحيح أن يُصنّف في قسم الآداب (نقد أدبي) .